

كنتُ واحدة من بين حوالي مئة مثقف عربي شاركوا في ملتقى القاهرة الدولي الخامس للإبداع الروائي العربي ، ما بين 12- 15 ديسمبر ، وكان عنوان المؤتمر الرواية العربية إلى أين؟!

وللأسف لم أستطع حضور كل الندوات والموائد المستديرة التي ناقشت قضايا هامة، خاصة موضوع رواية الخيال العلمي ، والرواية بوصفها حرية بديلة، لأن عدة نشاطات كانت تدور في وقت واحد، وفي كثير من الأحيان كنتُ أنتقل من قاعة إلى قاعة محاولة اقتطاف ثمار أفكار وتجارب إبداعية لمبدعين عرب قدموا من بلدانهم أو من المنفى ...

بداية يجب أن أشير إلى أن معظم مواضيع ملتقى الرواية تركزت حول قضيتين هما الرواية وثقافة الصورة، حيث نجد أكثر من عشرة عناوين لهذا الموضوع، وثانياً أثر وسائل الاتصال الحديثة على الرواية، وطبعاً المقصود الانترنت بالدرجة الأولى...

وبدا واضحاً قلق الكثير من الكتاب على مستقبل الكتاب المطبوع، فنحن نعيش في زمن ثورة الاتصالات، حيث بإمكان أي قارئ أن يدخل إلى مواقع معينة على الانترنت، ويقرأ ما يشاء من الكتب، ويحملها وهو جالس في بيته... هذا بالتأكيد يشكل تهديداً للناسخ والكتاب معاً... كما أن هنالك العديد من الكتاب الشباب الذين لا يملكون المال لطباعة الكتب، يلجؤون لنشر إنتاجهم على الانترنت ...

لكن الموضوع الأهم الذي تابعته في مؤتمر الرواية، هو هبوط مستوى القراءة وأسبابه ، وفي الواقع أدهشتني الناقدة المبدعة شيرين أبو النجا، التي حللت بدقة وشفافية ودراية عالية ظاهرة تدني مستوى القراءة، وبرأيها أن هناك تركيز إعلامي واضح على القراءات الباهتة، وتساءلت لماذا كتابين مثل : نسيان .COM لأحلام مستغانمي ورواية عمارة يعقوبيان لعلاء الأسواني يحققان أعلى مبيعات؟!

وبرأيها أن العاملين وأعمالاً أخرى مشابهة تجعل القارئ سلبياً، ولا يبذل أي جهد لأنها تحول الواقع نفسه إلى صورة، فالشخصيات مرسومة سلفاً بكل تفاصيلها، والزمن نفسه ينساب، كما لو أن القارئ يتفرّج على فيلم سينمائي ...

وثمة حبكة مشوقة وجذابة، وبرأي شيرين أبو النجا أن هناك جهات إعلامية وإعلانية تصنع نجوماً من الكتاب، وتسلب الضوء عليهم، وتروج للمصطلح الدارج الأكثر مبيعاً أو أعلى المبيعات، وتقيم ندوات، وحفلات توقيع كتب، وتزيف في أرقام

المبيعات، فتضاعفها عشرات وأحياناً مئات المرات من أجل الترويج لكتاب معين ... وهذا يؤدي إلى تحدد الأنواع الأدبية وفق الإبداع ...

ثمة تركيز على قراءات باهتة وسهلة، كتب وروايات تشبه المسلسلات التلفزيونية السطحية والتي تعتمد على مجرد التشويق ...

قدم الناقد فيصل دراج دراسة مشوقة وعميقة في العديد من الروايات التي فضحت استبداد أنظمة الحكم الحالية استناداً على التاريخ أو بابتداع حبكة روائية من الخيال، وأشاد بعبقرية نجيب محفوظ في روايته أولاد حارتنا، كذلك برواية جمال الغيطاني الزيني بركات التي تنطبق على كل زمان ومكان رغم أن موضوعها يدور في القرن السادس عشر ...

كما قدّم العديد من الكتاب شهادات عن أكثر مشكلة يعاني منها الكاتب والإنسان العربي بشكل عام وهي نقص الحرية، وتسلب الرقيب، ليس الرقيب السياسي والثقافي، بل كذلك الرقيب الديني والاجتماعي، وسيطرة مفاهيم اجتماعية بالية على عقول الناس، وكانت مداخلتي بهذا الخصوص، إذ قدّمت شهادة عن أعمالتي تحت عنوان فضاء الكلفص، وشاركني الروائي اللبناني المبدع رشيد الضعيف الأفكار ذاتها، لكنه حكى عن خصوصية تجربته تحت مظلة الحرب الأهلية اللبنانية حيث القتل على الهوية ...

وقد أغنى الكتاب الذين يعيشون في المنفى ملتقى الرواية، خاصة واسيني الأعرج وعلي بدر ونجوى بركات وغيرهم، وقد فتحت مداخلاتهم أفقاً جديداً وسؤالاً ليس من السهل الإجابة عنه وهو هل يمكن اعتبار الأدب المكتوب بلغة أجنبية أدباً عربياً؟ وهناك أمثلة عديدة مثل محمد ديب من الجزائر، والطاهر بن جلون، وأمين معلوف، وغيرهم كثيرين ... فهم كتّاب عرب ويطرحون مواضيع من قلب مجتمعنا العربي، لكنهم يكتبون بالفرنسية؟! وبرأيي أن اللغة وحدها لا تحدد هوية الكتابة، فالهوية الحقيقية للنص هي موضوعه، أي روحه والقضايا التي يطرحها... حتى أن محمد ديب قال: اللغة الفرنسية هي المنفى الذي أعيش فيه، لكنه كان يحكم ظروفه يكتب بالفرنسية.

لا يمكن الإحاطة بكل الندوات الفنية التي غصّت بها قاعات المجلس الأعلى للثقافة، لكنني أعترف أن الحوارات التي كانت تدور بين المثقفين، في المطعم والكافيتيريا، وفي الباص الذي ينقلنا من الفندق إلى المجلس الأعلى للثقافة، حوارات من القلب، صادقة، كاشفة، تؤكد لنا أن همومنا واحدة، وأحزاننا واحدة، وطموحاتنا واحدة... طموح كل كاتب عربي المزيد من الحرية والمزيد من اهتمام الجهات الرسمية بالأدب الحقيقي، وليس بصناعة نجوم من الكتاب، كما يُصنع نجوم من المطربين...

لكنتي كنتُ أتمنى لو أن هناك حضور للكتّاب الشباب، كي نسمع صوتهم ونتبادل معهم النقاش لأن الإبداع أشبه بسلسلة متصلة، فلا إبداع حقيقي دون تمثّل كتب التراث، والكتّاب اللذين سبقونا، كما أن من واجبنا الاهتمام بإنتاج الكتّاب الشباب وتبادل النقاشات حولهم، والإصغاء إليهم وتوجيههم ... للأسف كانت هذه فجوة لا يمكن تجاهلها في ملتقى الرواية إلى أين، وهي غياب الجيل الشاب من الكتّاب ...

كما أن هناك فجوة أكبر وهي غياب الناشرين، أتساءل لماذا لا يدعى أهم الناشرين العرب للمشاركة في ملتقى الرواية الضخم الذي يقام في القاهرة كل سنتين، خاصة أن عشرات المواضيع، وتقريباً معظم الكتّاب تحدثوا عن أزمة الناشر، والإشكالات بينهم وبين الناشر، حتى أن بعض الكتّاب صرحوا أنهم رفعوا دعاوى قضائية على الناشرين، وبأنه كثيراً ما يتم استغلال الكاتب استغلالاً سافراً من قبل الناشر؟! كم كانت الجلسات لتكون أكثر صدقاً وشفافية، لو تم الحوار مباشرة بين الكاتب والناشر...

وأخيراً، وبكل صدق أعتزف أن ملتقى الرواية الخامس في القاهرة كان ناجحاً جداً، وبأن الحيوية والصدق وعمق وإشكالية المواضيع التي طرحها كانت ممتازة... وبأن هناك محاضرات أو شهادات عظيمة لأنها طرحت أفكار جديدة، مثل شهادة واسيني الأعرج الذي تساءل لماذا لا توجد رواية عربية تطرح أزمة المياه في العالم العربي وتعالجها ضمن قالب روائي، كما في الأدب الإفريقي، إذ لا تكاد تخلو رواية إفريقية من مشكلة المياه؟!

أما مسك الختام فكان حصول الكاتب الليبي ابراهيم الكوني على جائزة الإبداع الروائي، وقد قدم كلمة يمكن القول عنها لاهوتية فلسفية بعد تسلمه الجائزة، حكي فيها عن الكتابة كفعل خلق، وأهدى الجائزة إلى أطفال الطوارق في مالي ونيجيريا ...

لكن يحز في نفسي ألا أشير إلى أن لجنة التحكيم كانت مؤلفة من ثمانية نقاد ذكور ولم تكن بينهم ناقدة واحدة !